تصبح على خير يا سيدي المسؤول!

• أحمد سويد*

تحسَّس المسؤولُ منابتَ شاربيْه. حكّ صلعتَه. تجشَّأ بشيء من الضيق:

ـ لعلّه العشاءُ الثقيل الذي تناولتُه بعد نهار طويل من الإرهاق وتصريفِ مصالح العباد. أف. مطالبُ الناس لا تنتهي، ونحن المسؤولين نعاني في هذه الأيام على وجه الخصوص. لقد خرجتُ ظُهْرَ هذا اليوم مضطرًا إلى شرفة مكتبي، يحيط بي أعواني، لأحيِّي التظاهرة التي كانت تتجمّع في الساحة. شعاراتُها وهتافاتُها تطالبنا بمقاطعة بضائع العدوّ والدولِ التي تناصره. يا لهؤلاء السُّذَّج كيف يتلهَّوْن بالشعارات. تعمَّدتُ أن تكون خطبتي فيهم نارية. قلتُ لهم، بانفعال لا أدري كيف اصطنعتُه: «سوف نُغْلق الحدودَ والأجواءَ في وجه سلع العدوّ، وسوف نُحْرقها في الساحات العامة حين نَعْثر عليها.» وعندما علا التصفيق الحادّ زأرتُ: «وسوف نُحْرق في الساحات العامة كلَّ مَنْ يهرِّبها أو يقتنيها...» هتفت الجماهيرُ بحياتي، ثم تفرقتْ. وعندما غابت يافطاتُها دلفتُ إلى مكتبي لتقبُّلِ تهاني الأعوان على موقفي البطل، وهنّأتُ نفسي على موهبتي في التمثيل.

◆ ◆ ◆

تمدّد المسؤول فوق السرير. هَمَسَ لنفسه: ألا يحقّ لنا أن نَنْسى قليلاً المسؤولياتِ ومتاعبَها؟

ضَغَطَ الزرَّ في جهاز التحكّم. ملأتْ صفحةَ الشاشة الصغيرة فاتنةٌ رائعةُ الحسن، بشَّرتْ بأنّها قد أعدَّتْ للمتعَبين برنامجًا مثيرًا جدًا، وأنّ موعدَها معهم هو الواحدة بعد منتصف الليل.

تململ المسؤول: وهل علينا أن نَنْتظر حتى الواحدة؟

ضغط على زرٍّ آخر فاقتحم الشاشةَ منظرٌ مرعب: سربٌ من القاذفات يُغير على نابلس. دويُّ الانفجارات يكاد يفجِّر التلفاز. أحسّ المسؤول بأنّ كتل اللهب والدخان والنار والأنقاض تكاد تَقتحم الغرفة. غطّى عينيْه متذمِّرًا:

ـ يا أخي، لِمَ يُقْحِمون علينا في أَسرَّتنا هذه المناظرَ المرعبة؟ أليس من حقّنا أن نرتاح؟ ثم.. إنّي قد قمتُ بالواجب أثناء النهار، واستنكرتُ بشدّةٍ العدوانَ الآثم، وأدليتُ بتصريح مزلزل تناقلتْه وكالاتُ الأنباء العالمية. ألا يكفي؟

بلع المسؤول غيظه، وقال في سرّه: لنُغيِّر المحطّة!

ما كاد يَضغط حتى زلزل الشاشةَ صوتٌ كهزيم الرعد:

ـ هؤلاء المسؤولون جميعهم خونة، جاء بهم حماةُ العدوّ ليغضُّوا الطَّرْفَ عن جرائمه. على الجماهير أن تتخلّص من الأسوار التي تقي العدوّ قبل أن تخوض معركتَها مباشرةً معه.

غلى دمُ المسؤول. كاد يحطِّم بقبضته الشاشة اللعينة:

ـ كيف يُسمح بمثل هذا التطاول على المسؤولين؟ كيف يجوز للأثير أن يتواطأ، فينقُلَ مثلَ هذا التحريض العلنيّ الإجراميّ علينا؟ كيف؟

يُطرق بابُ الغرفة طرقًا خفيفًا. تتجمّد «كَيْفَ» على لسانه. ينشقّ البابُ بلطف وحرص. يَظهر في إطاره وجهُ «هالة» كالبدر لحظةَ اكتماله. يهشّ لها المسؤولُ رغم رعشة الانفعال الشديد التي مازالت تهزّ كيانه.

تدنو هالة، مربيةُ أطفاله الغالية التي تعوَّدتْ أن تلقّنه دروسًا ليليةً في المسؤولية اللامسؤولة. تسأله برقّة:

ـ قلتَ لي قبل أن تَدْلف إلى غرفتك إنّك مرهق، فلماذا لم تنم حتى الآن؟

أشار إليه، وزعق:

---

* ـ أمين عام سابق لاتّحاد الكتّاب اللبنانيين. محامٍ. عضو سابق في البرلمان اللبنانيّ.

ـ هذا الصندوق اللعين أخرجَني من جلدي. كلّما ضغطتُ على زرٍّ انبثق من شاشته شيطانٌ أو إرهابيٌّ يهدِّدنا بالقتل!

ابتسمت هالة. مرّرت كفَّها الحريرَ على خدّه. هدأ المسؤول. سرى في أوصاله خدرٌ لذيذٌ يُشْبه النعاسَ الربيعيّ. أغمض عَيْنَيْه، فتراجعتْ بخفّة غزال:

ـ تبدو متعبًا يا سيدي. فلنؤجِّل الدرسَ إلى الليلة القادمة.

◆ ◆ ◆

صحيح، هو تعب، ولكنّه لن ينام. سوف ينتظر موعدَ الجنية الفاتنة. ألم تَعِدْه بالساعة الواحدة بعد منتصف الليل؟

لن يُشْعل التلفازَ، إذن. سوف يَقْتل ضجرَ الانتظار بتصفّح جرائد اليوم.

العنوان الأول في صحيفة **الدهر** يَصدمه: «على جماهير الأمّة أن تثور.»

افتتاحية صحيفة **الناقوس** تبشِّر المسؤولين على ساحة الوطن كلّه بأنّ ساعة الخلاص منهم قد اقتربتْ.

المقال الأول في صحيفة **الخازوق** يتساءل: «كيف يستطيع مسؤولٌ ذو ضمير أن ينام وهناك شعب شقيق يتعرّض للذبح اليوميّ والإبادة المنهجية البربرية؟»

قذف الصحفَ بحركة عصبية. حدَّثتْه نفسُه بعد أن هدأ قليلاً: قد تكون مجلاتُ الفرفشة أكثرَ تهذيبًا مع المسؤولين وأكثرَ رصانةً. هذه مجلة **الطراطير**. إنّها مجلة هزلية، ترفيهية لا شأن لها بالسياسة.

قلب الصفحةَ الأولى. لطمتْ عينيْه في الصفحة الثانية صورةٌ كاريكاتورية: جماهير تطوِّق بالعصيّ والنبابيت رئيسَ دولة الواق واق وهي تهتف: «لقد باع الخائن جزيرتنا!» وصبيٌّ قصيرُ القامة يدعونه «حنظلة» يتدحرج بين الجموع ويصرخ: «اشنقوه، اشنقوه.»

قذف المجلة بقرف:

ـ إنّه عصر الرّعاع. على المسؤول الذكيّ أن يهتمّ بحديقته، كما يقول المثل الفرنسيّ. لقد أمّنتُ لنفسي ولذريّتي ما لا يَنْفد من الثروة. ولتَنْشَقَّ الغوغاءُ، ومعها حنظلة، ما دمتُ قادرًا عند كلّ حدث على أن أحسن لعبةَ الإلهاء، فأُشْغِلَ وسائلَ الإعلام باللازمة التي أتقنتُها: نَستنكر، نحتجّ، ندين. ولا أخشى غضبَ المرجعيات الكونية الصديقة؛ فهي على يقين بأنّي أقود الموجةَ إلى الصخرة التي تتحطّم عليها.

ابتسم المسؤول بانتشاء. وقبل أن تَبْهت البسمةُ العريضةُ على شفتيه، انشقّ باب الغرفة.

ـ لاحظتُ يا سيدي أنّكَ لم تطفئ النور، فقلقتُ عليك.

ـ ادخلي يا هالة. لقد دقت الساعة الواحدة وحان الموعدُ المنتظر.

ضغط المسؤول الزرّ، فتوهّجت شاشةُ الأجساد العارية والغرائزِ الفالتة.

تصبحْ على خيرٍ يا حضرة المسؤول!

بيروت